بعد الحمد جاء بالشهادتين

[وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا] . الشرح بعد أن حمد الله وأثنى عليه جاء بالشهادتين. وقد رُوي في بعض الأحاديث: { كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء } أخرجه أبو داود برقم (4841) في الأدب، باب: " في الخطبة" والترمذي برقم (1106) في النكاح، باب: "ما جاء في خطبة النكاح"، وأحمد في مسنده (2/ 1143)، وابن حبان برقم (579)، (1994)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (169). أي: المقطوعة والمشلولة، ولكنه حديث ضعيف. * قوله: (وأشهد أن لا إله إلا الله). هذه الشهادة الأولى وهي المقدمة، وهي متضمِّنة للشهادة الثانية المتضمنة للعبادة كلها؛ فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي إفراد وتخصيص الله بالألوهية والألوهية مأخوذة من التأله وهو التعبد؛ يعني: التحبب والتودد إليه سبحانه، ويدخل في ذلك كل أنواع التعبد. والعبادة هي كما قال ابن القيم -رحمه الله- " غاية الحب مع غاية الذل " ولهذا قال- رحمه الله تعالى- في نونيَّته: وعبـادة الرحمن غاية حبه مع ذلِّ عابده هما قطبان أي: ركنان أساسيان. وهي: " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة " كما عرَّفها شيخ الإسلام -رحمه الله- بذلك العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 8. . فيدخل فيها قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، فعندما تشهد لله -سبحانه وتعالى- بتوحده وتفرده بالألوهية والعبادة، فكأنك تعترف بأنه يجب عليك أن تتألهه. كيف تشهد أن لا إله إلا هو ولا تتألَّهه سبحانه؟! كيف تقر بأنه إلهك ولا تألَّهُهُ؟! فالتأله هو التذلل والتعبد، أي: الطاعة والاتباع والامتثال مع المحبة والخوف والتعظيم، أو باختصار: هو غاية الحب مع غاية الذل. فإن قولك: أشهد أن لا إله إلا الله، أي: أقر واعترف أنه لا معبود بحق إلا الله. وقد اشتملت هذه الكلمة على نفي وإثبات، فالنفي (إلا إله) والإثبات (إلا الله). * قوله: (وحده لا شريك له). تأكيد لذلك الإقرار (وحده) تأكيد للإثبات (إلا الله)، (لا شريك له) تأكيد للنفي (لا إله). فهو سبحانه لا شريك له في عبوديته، كما أنه لا شريك له في ملكه وفي أسمائه الحسنى وصفاته العلى. * قوله: (إقرارا به وتوحيدا) أي: اعترافا باللسان بأنه لا معبود بحق سواه، (توحيدا) أي: إفرادا وإخلاصا له بذلك سبحانه وتعالى في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية. تنبيهات: التنبيه الأول: إن المقصود من هذه الكلمة معرفة معناها لا مجرد التلفظ بها، فأما من أتى بحروفها ولم يعمل بها فإنها لا تنفعه يوم القيامة، ولا تكون سببا لنجاته من النار والعياذ بالله. فالغاية من قولنا: " لا إله إلا الله " هي أن نتخذه إلها ومعبودا ولا نؤلِّه غيره، والتأله كما تقدم هو التحبب والتودد إليه سبحانه؛ فلا بد لمن يعمل بلا إله إلا الله أن يحب الله من كل قلبه أعظم محبة، ولا بد له أيضا أن يتذلل لله وأن يتواضع له غاية التواضع، وأن يعظمه غاية التعظيم، ويرجوه غاية الرجاء، ويخافه أشد الخوف، ويخشع ويخضع له سبحانه. فإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق العبادة ولا بد مع ذلك أن يخلع تأله غير الله من قلبه؛ فلا يذل لغيره، ولا يخضع لغيره، ولا يخاف سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يحب غيره كمحبته، ونحو ذلك، ومن كان كذلك فإنه يكون من أهل لا إله إلا الله. وأما الذين يقولونها بألسنتهم ثم يقعون في خلافها وفيما ينقضها فإنها لا تنفعهم؛ لأنهم جهلاء بمدلولها، فهم يقولونها وهم معتقدون أن من تلفظ بها فقد عصم ماله ودمه وحسابه على الله، ولكنهم ما عرفوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عدة أحاديث في الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي بعض الألفاظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وفي بعضها: من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، وفي بعضها: من وحَّد الله. بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل أضاف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله يشير الشيخ وفقه الله إلى حديث طارق بن أشيم الأشجعي الذي رواه مسلم برقم (23) قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ". . التنبيه الثاني: إن كثيرا من الناس يفسرون "لا إله إلا الله" بأنه لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا إياه، أو نحو ذلك، أو يقولون إن معناها: لا نعبد إلا الله ولا نصلي إلا له... إلخ. لكنهم لا يدرون ما معنى العبادة التي خلقوا من أجلها فيصرفونها لغير الله ولا يشعرون بذلك؛ فإن كل طواعية لمخلوق وذل له وخضوع له هو عبادة له في الحقيقة، فمن صرفها لقبر ميت، أو لقبر ولي، تذلل له، وخضع ودعاه، وناداه وهتف باسمه، وذبح له مثلا، فإنها عبادة له في الحقيقة، وإن لم يعترف بذلك. فهذا ما عبد الله حق عبادته، بل أشرك به سبحانه؛ فلا يكون من أهل كلمة لا إله إلا الله الذين تعصم دماؤهم وأموالهم. التنبيه الثالث: ليعلم أن لهذه الكلمة العظيمة شروطا سبعة لا بد من معرفتها: أولها: العلم المنافي للجهل؛ والدليل قوله تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } [محمد: 19]. والذين يقولونها ولا يعلمون معناها قد يقعون في خلافها أو في ما يناقضها، فلا بد من العلم بمعناها. الثاني: اليقين المنافي للشك؛ لأن المنافقين قد يقولونها لكنهم لا يوقنون بمضمونها، بل يشكون في ذلك، قال -صلى الله عليه وسلم- { أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة } أخرجه مسلم برقم (27)- 44 في الإيمان، باب: " الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . وقال -صلى الله عليه وسلم- { من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة } أخرجه مسلم برقم (31)-52 في الإيمان، باب: " الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . الثالث: الإخلاص المنافي للشرك؛ لأن بعضا من الناس قد يقولونها ولكنهم لا يخلصون دينهم لله، بل يصرفون بعضه لغير الله كاليهود مثلا، قال تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [البينة:5]. وقال -صلى الله عليه وسلم- حينما سئل: من أسعد الناس بشفاعتك، فقال -عليه الصلاة والسلام- { من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه } أخرجه البخاري برقم (99) كتاب العلم، باب: " الحرص على الحديث "، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . الرابع: الصدق المنافي للكذب؛ لأن هناك من يقولها بلسانه ولكن قلبه مكذب بها، فلا يكون صادقا في تلفظه بها، قال -صلى الله عليه وسلم- { ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار } أخرجه البخاري واللفظ له برقم (128) في العلم، باب: "من خصَّ بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا". ومسلم برقم (32)-53 في الإيمان، باب: " الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا"، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. . الخامس: المحبة المنافية للكره والبغض؛ فلا بد أن يكون قائلها محبًا لله غاية المحبة، ومحبا كذلك لعبادة الله. السادس: الانقياد المنافي للتردد أو التكبر، فلا بد أن يكون قائلها مقبلا على عبادة الله بكل قلبه. السابع: القبول المنافي للرد؛ فيجب على من قالها أن يتقبل كل ما جاء عن الله على ألسنة الرسل فلا يرد شيئا من لوازمها ومقتضياتها. التنبيه الرابع: قال شارح العقيدة الطحاوية انظر شرح العقيدة الطحاوية، صفحة: 43، 44- تحقيق الدكتور: عبد الله التركي. " وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت به ملائكته وأنبياؤه ورسله: قال تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران:18]. فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به. وعبارات السلف في "شهد" تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلها لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يُعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به، ويخبره به، ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به ". ا. هـ